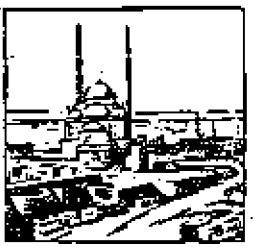

علاقة التاريخ باللهجات العربية

صورة محاضرة تلاها بالافرنسية الامير شكيب ارسلان

في مؤتمر المستشرقين المنعقد في لندن في اوائل سبتمبر الماضي

—٣—

نعود الى الموضوع فنقول :

ان اهالي حلب والشام وسورية الداخلية اذا ارادوا ان يسألوا احداً كيف حاله قالوا لهُ : ايش لونك ؟ وهو قول صحيح لطيف لان لون الانسان هو اول دليل على صحته وعدمها

وهذا الاصطلاح غير معروف في مصر والسودان . وبعكس ذلك تجده في برقة والحال انها ابعد عن الشام من مصر . فلو كان الجوار هو العامل الوحيد في تشابه طرق الكلام لكان الاولى باهل مصر ان يقولوا : ايش لونك ؟ لان مصر مصاقبة لبر الشام وبين هذين القطرين من العلاقات ما لا يوجد بين قطرين آخرين . وكان الاولى باهالي بر الشام ان يقولوا في سؤال الانسان عن صحته : زينك ؟ كما يقول اهل مصر والحال ان شيئاً من هذا غير موجود. فلزم ان يكون هناك اسباب اخرى وهي ان قبائل برقة التي اكثرها من سليم بن منصور هي قبائل نجدية — لان سليم بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان هي اكبر قبائل قيس — وكانت منازلهم في عالية نجد بالقرب من خيبر . ومنهم من هلال بن عامر بن صعصعة ابن معاوية بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان وهم من جبال الطائف. ولاشك ان قبائل نجد وجبال الحجاز كما ان قسماً منها هاجر الى برقة فان القسم الآخر نزل بوادي الشام ومنهم من تحضر بمرور الايام . فمن هنا جاء التشابه في بعض اللهجات والاصطلاحات بين اهل سورية واهل برقة ووجدت جمل خاصة يقولها هؤلاء واولئك وهي ليست من الاصطلاحات العامة لكلام العرب حتى يقال انها مما يقولهُ العرب في كل مكان

ثم ان اهل كسروان من جبل لبنان يضمون الشين في حال النفي في آخر الجملة فيقولون مثلاً : ما هو من لبنانش اي « ما هو من لبنان » واذا كان النفي مقروناً بالاستفهام : «ما انت من بيروتش ؟ » اي ما انت من بيروت ؟ وجميع كلامهم هو على هذا النمط على حين ان هذا الاصطلاح في الشين لا يوجد عند مجاوريهم لا اهل المتن ولا اهل الشرف ولا اهل زحلة ولا اهل البترون . واهالي هذه الاقسام الاخرى من لبنان تضع هذه الشين في وسط الجملة فتقول: « ما هوش من لبنان » او « موش من لبنان » و « ما انتش من بيروت » ولكن اهالي برقة يضمون هذه الشين في آخر الجملة فكنت اسمعهم يقولون ذلك دائماً مثل اهل كسروان . ومرة كنت ذاهباً الى « شحات » او سيرنا » القديمة فنلت الطريق واخذت في شعب ظننت

نفسي به ذاهباً الى شحات فصادفني احد شيوخ العرب فقال لي. الى اين ؟ فقلت :الى شحات فقال لي : « هذه الطريق ما تأخذ الى شحاتش» اي بالاصطلاح الكسرواني المعروف ببنان بعينه. وكان انسوّاس يقولون : « لطّيل ما عندها شعيرش » اي ما عندها شعير. وهلمّ جرّا. ويقال ان في دمياط من بر مصر شيئاً من هذه الشين. ومن المعلوم انهُ ليس بين اهالي كسروان في لبنان وبين اهالي برقة في افريقية ادنى علاقة لا في القديم ولا في الحديث. فكيف اجتمع هذان القطران في لغةٍ كهذه ؟ الجواب لا يمكن تفسير ذلك الاّ بكون القبائل التي نزلت برقة متحدة الاصل مع بعض القبائل التي نزلت بعلبك وشمالي لبنان. ولا يقدح في ذلك كون اكثر كسروان موارنة مستعربين من اصل آرامي كان آباؤهم يتكلمون قبل الفتح العربي بالسريانية. فان هؤلاء المستعربين قد تلقوا العربية عن عرب افحاح نزلوا في سهول بعلبك وفي لبنان الغربي مما يليها وهؤلاء العرب هم آباء المسلمين الشيعة الساكنين مع الموارنة في وطن واحد

ولقد لحظت اذ انا في الاندلس اسماء عربية كثيرة مبدوءة بلفظة « بني » لكنها في بلاد بلنسية ودانية وانتت تلفظ بفتح الباء مع امالة قليلة ودليل ذلك كتابة الاسبانيول لها هكذا: Beni فيقولون : بني قاسم Beni Kassim وبني غفار Beni Gefur وبني سالم Beni Salem. اما في جزيرة ميورقة وفيها ايضاً اسماء كثيرة مبدوّة بلفظة « بني » فيلفظونها بامالة شديدة ويكتبونها بالاسبانيولي هكذا Bini فيقولون Bini Aly و Bini Kassim وقد اخطرت ببالي هذه القصة الاختلاف نفسهُ في سورية

في فلسطين مثلاً يقولون « بني صعب » و« بني مالك » و« بني مرة» بفتح الباء . وفي جبل لبنان يقولون« بني يزبك »و« بني احمد » و« بني ركين» و« بني قعيق »و« بني خميس»بكسر الباء

ومن العرب من يبدل التاء هاء في الوقف وتنسب هذه اللغة الى طيّ وقالوا : « دفن البناه من المكرماه » اي دفن البنات من المكرمات . ويقول حفني ناصف ان هذه اللغة منها أثر في المنوفية فيقولون : « يابه » اي يا بنت . ومن العرب من يعكس القضية فيبدل الهاء تاء في الوقف كما يفعلون في الوصل تبع بعضهم يقول : « يا اهل سورة البقرت » . فقال مجيب: « ما احفظ منها ولا آيت » . ولقد سمعت هاتين اللغتين . من عرب البادية واهل نجد . فالمثال على الاولى قولهم « ذرعاه » اي « ذرعات » هذه البلدة التي في حوران . وعلى الثانية لغة اهل حائل واهل القصيم يقولون « مكت »و« المدينت » وكان معي واحد منهم يوم كنت في الطائف فكان يقول « الشجرت » و«السدرت» الخ

ومن العرب مثل بلحوث وخثعم وكنانة من يقلب الياء الفاً بعد اتصالها بالضمير وذلك في مثل « عليهِ » و« اليهِ » و« عليك» و« اليك » فهؤلاء يقولون فيها « علاه » و«الاه» و« علاك » و«الاك» ولاشك ان في النازلين الاولين في طرابلس الشام من العرب قوماً من

كنانة وخثعم وبلحوث لانهم الى الآن يقولون في « عليه » « علاه » وفي « عليك » « علاك » وهلمَّ جرًّا . والمشهور في اللغة تحقيق الهمزة الساكنة في مثل بئر ورأس وفأس وثأر ولؤم وظؤرونؤي وغيرها . وأما كانت تميم من الاصل تقلبها من جنس حركة ما قبلها فتقول بير وفاس وراس وثار الخ . ومن الغريب ان لغة تميم هذه هي الغالبة على الكلام العامي اليوم في جميع الاقطار العربية مصر والشام والمغرب والعراق الخ

وعند طي لغة اسمها القطعة وهي حذف آخر حرف من الاسم ومثاله « ابو الحكا » في « ابو الحكم » وعليها كلام اهل قرية نيحا الشوف في جبل لبنان كانوا يقولون « ابو حسا » في « ابو حسن » ويقال ان اهل المحلة الكبرى وابيار وغيرها بمصر عندهم هذه اللغة وقد ورد عن العرب « لم يسما » اي لم يسمع . وانا سمعت كثيراً بعض شيوخ من بيروت يقولون « نهارك سا » اي نهارك سعيد

والترخيم هو حذف الحرف الاخير من المنادى وهذا مستفيض في كل بلاد العرب ولغة بلحوث حذف اللام والالف من على الجارة فيقولون « عَلَه » اي « على الله » . وطلع « عَسَّطح » اي « على السطح » . وهذه اللغة نظراً لما فيها من الاختزال غلبت على عامي الاقطار العربية بأسرها

ومثلها في الاختصار لغة خثعم وزبيد في حذف نون « من » اذا وليها ساكن فيقولون: « خرجت مِالدّار » اي « من الدار » وقد جاء فيها شعر . وهي معروفة عند بعض العامة اليوم لكنها لم توفق توفيق حذف اللام والالف من « على »

ومن العرب من يبني « مَعْ » على الفتح وهو المشهور (ياليتني كنت مَعَهُمْ) الاَّ ان ربيعة تبنيها على السكون فتقوم « كنت مَعْهُم » وهاتان اللغتان موجودتان عند عامة العرب اليوم . وفي جبل لبنان من يفتح وبعد الفتحة حتى تصير الفاً فيقول « كنت معاهم » ومنهم من يسكن . وهكذا في الديار المصرية . وفي كل البلدان اناس تكسر ميم مع . ومن غرائب انحاد اللغة لفظة يقولها العامة للحمار اذا ارادوا ان يهيجوه وهي « ازعرّ » وهي لفظة ذات اصل في اللغة جاء في القاموس : وزعّر بالجحش تزعيراً دعاه للفساد . وقد كان معروف الرصافي الشاعر العراقي المشهور اطلعني اذ كنا في استانبول على بعض اصطلاحات لعامة اهل العراق منها لفظة « ازعرّ » التي تقال للجحش وقال ان لها اصلاً في اللغة . فقلت لهُ ان ازعرّ هذه معروفة عندنا في سورية ايضاً . وكان في مجلسنا ساعتئذٍ المرحوم الاستاذ الشيخ عبد العزيز جاويش فسألتهُ : اهذا معروف عندكم بمصر كما هو معروف بالعراق والشام فقال : نعم هذا معروف بمصر . وكان في المجلس المرحوم الاستاذ الشيخ صالح الشريف التونسي فقال : ومعروف في تونس ايضاً . وكان في المجلس الاستاذ الشيخ محمد العتابي المراكشي حفظهُ الله فقال : ومعروف في المغرب ايضاً

فأنت ترى ان لفظة سخيفة كهذه يهاج بها الحمار للسفاد معروفة في جميع الاقطار العربية وانا لنجتزئ بهذه الامثال لاعطاء صورة ذهنية عن البحث الذي نترخاه ونندب الباحثين ان يكملوه لما فيه من الحجج بين يدي التاريخ . فانهُ اذا كان الكلام متشابهاً بين سكان بلدان مصاقبة بعضها لبعض لم يكن ثمة الا الشيء الطبيعي وكان الناس عللوا هذه المشابهة بالجوار الذي يحدث اصناف العلاقات بين المتجاورين . واما اذا كانت المشابهة او حذو النعل بالنعل بين بلدان متباعدة هذا في الشرق وهذا في الغرب كما بين الشام والاندلس مثلاً او نجد وشنقيط فلا يكون لذلك سبب الاَّ وحدة الاصل

ان هذا الفصل ليس الاَّ عجالة . وامام الباحثين والمنقبين عمل كبير اذا ارادوا ان يعرفوا القبائل العربية المختلفة التي طارت الى القواصي في الفتح الاسلامي وان يعينوا مختلف الاتجاهات التي اتجهت بها هذه القبائل في هذا المصور الفسيح بين الحلايا والالب

ملحق

ومن آثار التشابه بين لهجة الشاميين والاندلسيين ما كان عليهِ لفظ عرب غرناطة في عصر سقوط تلك البلدة انهم كانوا في غرناطة يقولون مثلاً « والدنا » فيميلون الواو والالف امالة شديدة حتى تسمعها كأنها « ويلدينا » Wildina وانهم كانوا يقولون « كل سنة » بكسر السين والنون والوقوف على الهاء اي « كل سنه » . وهذا كما يقال في سوريا اليوم « كل زمين » « أي كل زمان » . وكانوا يقولون مثلاً « خمس مِيه » بكسر الميم والياء ويقفون على الهاء وذلك كما تقول نحن اليوم في الشام . ومن آثار النسب اللغوي الذي بيننا وبينهم استعمالهم « القد » بمعنى المقدار وهو استعمال فصيح في ذاته يقال هذا على قدّ هذا ولكن يكاد يكون خاصًّا بأهل سوريا . غير ان الغرناطيين كانوا يقولون « قد دي » في مكان « بقدر هذا » فتجد في هذه الجملة اصطلاحاً مصريًّا أيضاً لان « دي » ليس من اصطلاح أهل الشام بل من اصطلاح اهل مصر . وكانوا يقولون ايضاً على لغة مصر « بعد دي » اي « بعد هذه » وكانوا يقولون « قد هؤلاين » اي بقدر هؤلاء وكانوا يقولون الفاظاً كثيرة بامالة شديدة كاهل سورية . فاذا ارادوا ان يقولون مثلاً « بَرّي » قالوا « بِري » بكسر الباء مع اننا نحن في الشام نلفظ هذه الباء هنا بالفتح نسبة الى البر فنقول مثلاً « بَرّي » غير انني سمعت العوام في شمال سوريا يلفظونها كاهل غرناطة اي « بِري » بالكسر فيقولون « حيوان بِرّي » مثلاً وكان الغرناطيون يكثرون الادغام في كثير من الكلمات فيقولون « منا » بدلاً من قولنا نحن « منّا » غير اني سمعت ايضاً كثيرين في سوريا يقولون « منا » بفك الادغام . ومن المعلوم ان الادغام كان لغة نجد وان فك الادغام كان لغة الحجاز وكلتاهما سقطتا الى سورية . وقد جاء القرآن الكريم بكلتا اللغتين . ولكن من اصطلاحات الغرناطيين اشياء لم اطلع عليها في لغة

الشام ويجوز ان تكون موجودة واكون غير مطلع عليها لان من يتحرى التاريخ من منابع اللهجات ينبغي لهُ ان يثافن ويشافه جميع اهالي الاقطار العوام منهم اكثر من الخواص وان يستمع الى احاديث اهالي القرى خاصة لان المتعلمين والمتأدبين يتوخون متابعة الكتب المدرسية بخلاف العامة . وقلما تيسر لبحاثة لغوي ان يجوب في الحواضر وفي القرى وفي البوادي حتى يأخذ لغات اهلها في العربية ويقيد لهجاتهم ويقايس بعضها الى بعض ويستنبط اصولها ومآخذها من العربية الاولى ايام كانت القبائل ساكنة في جزيرة العرب قبل الفتوحات . فمن اصطلاح الغرناطيين انهم كانوا يقولون «كل عامي» «وكل يومي» بدلاً من كل عامين وكل يومين وهذا على اسقاط الحرف الآخر مما ورد مثله في كلام العرب وتقدم لنا امثلة على هذا الاصطلاح من كلام اهل سورية وغيرهم

وكان اهل غرناطة يقولون «ابن آدِم» بكسر الدال كما يقول كثير من العامة في لبنان . وكانوا يقولون «بعد الغدي» اي بعد الغد . وهذا كما يقال ايضاً في سورية . وكانوا يقولون «نِفس» بكسر النون اي «نفس» ويقولون «بلا شِك» بكسر الشين في «شك» وهي مفتوحة . وكل هذا من باب الامالة . وكانوا يقولون «عقب النفيس» اي «عقب النفاس» للمرأة وهذا من الامالة الزائدة مثل قولهم «الجهيد» للجهاد و«الكتيب» للكتاب و«الامام الاوزيعي» للامام الاوزاعي . ومن الدلائل على كون السواد الاعظم من العرب الذين فتحوا اسبانية كانوا من اهل الشام انهم جميعاً على مذهب الامام الاوزاعي امام اهل الشام ولم يتبدلوا مذهب مالك منهُ الاَّ في زمان بني أمية في قرطبة

وكان اهل قرطبة يقولون عن بلدتهم «المدينه» بكسر النون كما يقول اليوم اهالي سورية الاَّ النادر منهم . وتجد الاسبانيول يكتبونها في كتبهم Almédine ولا يكتبونها Almadina ولو كان الاندلسيون يلفظون «المدينة» كأهل مصر او اهل الحجاز او اهل المغرب مثلاً لكان الاسبانيول نقلوها عنهم بهذا الشكل Almadina اي بحرف a لا بحرف e الذي يتلفظون به كأنهُ الياء . وكان اهل غرناطة يقولون لمدينة «اشبيلية» حمص ولا يقولون اشبيلية الاَّ نادراً وهكذا سماها صالح بن شريف الرندي في رثائهِ المشهور للاندلس

وأين حمص وما تحويهِ من نُزَهٍ ونهرها العذب فياضٌ وملآن

وقد كنت اتذاكر هذه المرثية انا وصاحبنا الاستاذ الشيخ عبد العزيز جاويش روّح الله روحه فقال لي: كيف يكون الوادي الكبير فياضاً ثم يعود ملآن والفيض بعد الامتلاء لا قبله

وكان من رأيي ان مراد الشاعر كون الوادي تارةً فياضاً وطوراً ملآن بحسب فصول السنة فتسمية الاندلسيين لاشبيلية حمصاً هي من باب ولوعهم بأسماء البلاد الشامية

(اختصرنا من الاصل الذي تلوناه بالافرنسية في مؤتمر المستشرقين كثيراً من الامثال)